


المنظومة
ALMANDUMAH



رهان تطوير الفكر الأشعري في المغرب

بين ثقل الماضي وتحديات الحاضر

الأستاذ يوسف احنانة

مثل الحضور الأشعري في الغرب الإسلامي عبر التاريخ، حاجة أملتها الشروط التاريخية والمذهبية التي عاشها أهل هذه المنطقة، قبيل ترسيم العقيدة الأشعرية عقيدة رسمية في المنطقة، بدءا من القرن السادس الهجري وبالضبط زمن الدولة الموحدية. فقد تأرجح سكان هذه المنطقة قبل ذلك بين الاعتزال، والتشيع، والإباضية، والصفرية، والمرجئة...... فكان منطقيا أن يختار علماء هذه المنطقة عقيدة سنية وسُطية تؤمن بأولوية النقل، لكنها لا تضرب عرض الحائط العقل ولا أهميته في تبرير اختياراتها المذهبية، وأفكارها العقدية، والحجاج به عن العقائد الإيمانية المختارة.

صحيح أن المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي مثّل وسطية حقيقية مقارنة مع المذاهب السابقة عليه في الحضور إلى هذه المنطقة. فقيض الله له علماء ومفكرين نشروه وثبتوه وطوروه وكيفوه مع شروط منطقتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، فظهرت في بداية الأمر العقائد المختصرة كعقيدة المرشدة لابن تومرت، ومنظومة الضرير، وعقيدة البرهانية للسلالجي، وما تلتها من شروح كثيرة ومتعددة. ثم بعد ذلك ظهرت شروح كتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجويني بنوع من الإسهاب مع ثلة من خيرة علماء هذا المذهب من القارتين أفريقيا وأوربا (المغرب العربي والأندلس) كشرح أبي يحيى زكرياء الشريف الإدريسي، وشرح ابن دهاق، وشرح ابن ميمون القرطبي، وشرح ابن بزيزة، وشرح الخفاف..... وانساب تطور هذا الفكر مع العديد من العلماء وبمختلف الأوجه والأساليب إلى أن أتت عليه لحظات عرف فيها فتورا وتراجعا تزامن مع تراجع الوجود الإسلامي في الأندلس. وما إن استعاد أهل المغرب سلطانهم واسترجعوا شوكتهم وبسطوا نفوذهم على بلاد السودان حتى تطور هذا الفكر من جديد لكن بشروط جديدة وطابع جديد، وكان ذلك مع المفكر التلمساني أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الذي ترك لنا خزانة محترمة من العقائد والمؤلفات في العقيدة الأشعرية كالعقيدة الكبرى، والوسطى، والصغرى، وصغرى الصغرى وصغرى صغرى الصغرى وشروحه عليها فتمكن

بهذا الكم الهائل من المؤلفات العقدية أن يدشن مرحلة في تاريخ الحضور الأشعري جديدة، استحضرت ثوابت هذا المذهب من جهة، وتحديات الوقت والمرحلة من جهة ثانية.

ومع تطور الأيام صارت عقائد الإمام السنوسي مرجعا حقيقيا للفكر الأشعري بالغرب الإسلامي فظهرت عليها الشروح المتعددة والحواشي والأنظام فشغل الدنيا وشغل الناس حتى كاد يكون هو المرجع الأوحد في البعد العقدي الأشعري في هذه المنطقة إلى عهد قريب. وخير مثال يوضح الهيمنة الفعلية لعقائد السنوسي هو أن المقدمة العقدية للمرشد المعين لابن عاشر نسجت على منوال العقيدة الصغرى (أم البراهين) للإمام السنوسي ورددت مضامينها القد بالقد.

واليوم يشهد الفكر الأشعري نوعا من التراجع في عدم الوعي بقيمة ثقل الماضي وأهمية الثوابت المذهبية للبلاد، فشهد في المقابل زحفا متزايدا للمذاهب الوافدة من وهابية، وتشيع، وظاهرية، وخوارج .... حتى صار الأمر يقتضي صحوة في الفكر الأشعري، وربط كل هذه الصحوة بشروط وملابسات الوقت. فكيف يمكن أن تكون هناك هذه الصحوة؟ وتحت أية توجهات ينبغي أن تسير؟

واليوم يشهد الفكر الأشعري نوعا من التراجع في عدم الوعي بقيمة ثقل الماضي وأهمية الثوابت المذهبية للبلاد، فشهد في المقابل زحفا متزايدا للمذاهب الوافدة من وهابية، وتشيع، وظاهرية، وخوارج .... حتى صار الأمر يقتضي صحوة في الفكر الأشعري، وربط كل هذه الصحوة بشروط وملابسات الوقت.

الحقيقة أننا سنسعى من خلال هذه الورقة المقتضبة أن نقدم أهم المحاور والمباحث التي يمكن أن يطالها التجديد والتحديث وأن ينصب عليها اهتمام الباحثين المجتهدين في هذا الشأن. علما أن هناك ثوابت لايمكن بأي حال من الأحوال أن يتم إعادة ترتيبها أو النظر والتجديد فيها ومن أهم المحاور التي نرى إمكانية التجديد فيها والتفكير في تفاصيلها:

1 ـ **وجوب النظر العقلي:** ذلك أنه من أهم خصوصيات الفكر الأشعري في منطقة الغرب الإسلامي إلزام العوام بعلم الكلام أعني أن أشاعرة الغرب الإسلامي أجمعوا على ضرورة معرفة الله بالنظر العقلي واعتبروا ذلك من فروض الأعيان فنبذوا التقليد في العقائد. وهو اختيار يجد اليوم في الظروف المعاصرة ما يشجعه ويدفع في اتجاهه فالقول بذلك يتناسب اليوم مع سياسة تعميم التعليم ومحاربة الأمية التي ينهجها الاختيار المغربي الذي ينحو في اتجاه تعميم التعليم في أفق إجباريته. فالعوام إذن إذا ما وجدوا أنفسهم مضطرين لمعرفة الله بالعقل وبالنظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض فلا شك أن ذلك سيكون حافزا لهم للإقبال على التعليم ومحاربة الأمية لا سيما إذا علموا أن الأمية والجهل تعوق معرفة الله معرفة سليمة

2 ـ **المسؤولية:** إذا كانت نظرية الكسب قد شكلت في تاريخ الفكر العقدي نقطة إبهام فإن ما طبعها هو ميلها إلى الجبر حتى قال بعضهم إن نظرية الكسب هي جبر مبطن. لكن ما نلاحظه على نظرية الكسب هو الخوف من أن يفهم منها العامة أن المسؤولية الإنسانية غير موجودة في نظرية الكسب فينتشر التواكل والاتكال والتقاعس في حين أن الذي ينبغي أن يسود اليوم هو القول بالمسؤولية الإنسانية والإرادة البشرية. فعلاقة الله بالإنسان هي علاقة خالق بمخلوق، أما علاقة الإنسان بالإنسان

فهي علاقة مخلوق بمخلوق وحتى تسود مجتمعنا ثقافة المسؤولية والتنافس الشريف على ما فيه مصلحة العباد والبلاد فلا بد من الدفع في اتجاه تأسيس نظرية في الكسب جديدة تروم التأكيد على الإرادة الإلهية باعتبارها إرادة مطلقة تضع القوانين الكونية وتسهر على تتبعها وتراعي مصلحة الإنسانية. والقول بالإرادة الإنسانية المسؤولة عن أفعالها وما يصدر عنها فكل فعل إنساني هو فعل مسؤول يتحمل فيه صاحبه المسؤولية أمام الآخرين وأمام الله. وقد نرى للإرادتين الإلهية والإنسانية تلاقيا في الدعاء المستجاب حيث توجد الإرادة الإنسانية باعتبارها رغبة في التحقق في حين تمثل الإرادة الإلهية تفعيلا لها وتحققا في الواقع. لذا فإننا ندعو إلى تجديد لهذا الجانب العقدي والنظر إليه على أساس أن هناك صورة لنموذج الإنسان الذي نسعى إلى تكوينه وتربيته بهذه العقيدة وأن هناك صورة لطبيعة الرؤية إلى الكون والوجود التي نريد تكريسها في معتقد وأفهام الناس من خلال هذا المعتقد.

3 ـ **الإمامة:** بما أن مبحث الإمامة مثل في الفكر الأشعري واحدا من أهم المباحث السمعية في العقيدة حيث عقدوا له بابا وفصلوا فيه شروطا وضعوها للإمامة الكبرى كشرط القرشية والعلم وحماية بيضة المسلمين ...الخ وقد أتى على أهل المغرب حين من الدهر عرفت فيه الخلافة الموحدية استقلاليتها عن دولة الخلافة العباسية فتولى البرابرة الإمامة الكبرى مصامدة وزناتيون فكان أن انتفى شرط القرشية مما سبب إحراجا مذهبيا للعلماء ومتكلمي الأشاعرة في هذه المنطقة فما كان منهم إلا أن أقصوا هذا المبحث عن مباحث علم الكلام الأشعري ولم يعد مكونا من مكوناته فصار علما مستقلا هو علم الإمامة. واليوم والمغرب يحكمه الشرفاء العلويون وقد توافر فيهم شرط القرشية بامتياز بله شرط الانتماء إلى العترة النبوية الشريفة ناهيك عن كل الشروط الأخرى المنصوص عليها في شروط الإمامة الكبرى عند الأشاعرة، وبدأت تطفو على السطح مناقشات في إمارة المسلمين من طرف أصحاب الأصول الفرنسية أو البوسنية أو الأفغانية ... فلا بد من أن يعود هذا المبحث إلى أصله ليكون جزءا لا يتجزأ من مباحث العقيدة ومكونا من مكوناتها. بل إن حقل إمارة المؤمنين عند المغاربة إذا ما ارتبط بالعقيدة وتوضح عند العموم انه لا يتجزأ من الجانب الأهم من جوانب الثوابت المذهبية للبلاد ألا وهو العقيدة

4 ـ **ثنائية الكفر والإيمان:** بما أن واقع العالم الإسلامي يعيش ظروفا كونية تقوم فيها وسائل الإعلام والتواصل بدور فاعل وخطير حيث تحول العالم معها إلى قرية صغيرة وصارت الأفكار والإيديولوجيات تنتقل بسرعة وتنتشر في العالم كما ينتشر اللهيب في الهشيم فتكالبت العديد من العقائد والمذاهب الوافدة تحاول أن تفرض وجودها وتمانع على الساحة فلا بد أن يحافظ الفكر الأشعري على طابعه السجالي والقيام بالدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والنقلية لأجل هذا صار من الضروري أن يتولى علماء المغرب المقتنعون بالعقيدة الأشعرية الدفاع عن ثوابتهم وقناعاتهم المذهبية وأن يتقنوا فن الحجاج والدفاع والاستدلال على المعتقدات الإيمانية بما يكفي من الأدلة النقلية والعقلية سواء في نقاشهم مع من يخالفهم الملة والدين من يهود ومسيحيين أو مع من يشاركونهم في الملة والدين من أهل المذاهب الأخرى من وهابية وشيعة وخوارج و.... لكن ما ينبغي التأكيد عليه ونحن نحاور ونساجل من يشاركنا الملة والدين من أهل القبلة أن لا يكفر بعضنا الآخر لذا صار من الطبيعي

ان نستبدل ثنائية (الكفر والإيمان) بثنائية معرفية (الصحة والخطأ) لأن من شأن الثنائية الأولى أن تكرس ثقافة الإقصاء والإخراج عن دائرة الدين في حين تحافظ الثنائية الثانية على التعايش وتكرس ثقافة الاختلافات بين الثقافات والحضارات.

5 ـ النبوة: يأخذ مبحث النبوة في العقيدة الأشعرية في نسختها المشرقية مكانة هامة باعتبار أن الإيمان بالنبوة والأنبياء جزء مهم من الاعتقاد الإسلامي فكلمة التوحيد لا تفصل بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (ص) ومن ثم كان الإيمان بالنبوة مكونا مركزيا في العقيدة الأشعرية لاسيما عندما واجه أشاعرة المشرق منكري النبوات والمعجزات من ملاحدة المسلمين أمثال ابن الراوندي وأبي عيسى الوراق وغيرهما لكن أشاعرة الغرب الإسلامي لم يسهبوا في هذا المبحث كثيرا لأنه لم يواجه منكري النبوات في هذه المنطقة. لكن اليوم تعود إلى الساحة ضرورة احترام الأنبياء والرسل باعتبارهم أشخاصا مقدسين اختارهم الله لتبليغ رسالاته إلى خلقه فحري بنا أن نحترمهم ونبجلهم ونقدسهم وننظر إليهم نظرة واحدة من غير أن ننقص من قيمة أحدهم أو أن نوجه لأحدهم ما من شأنه أن يسيء إليه أو يهينه أو يعرضه وآله للسخرية والاستهزاء. وإن من شان ذلك أن يشيع ثقافة التعايش واحترام الأديان السماوية الأخرى

وبالجملة فإن ما ندعو إليه اليوم وتدعو إليه الضرورة التاريخية إن شئنا تحصين الذات المغربية والحفاظ على الثوابت المذهبية للبلاد هو أن نتمسك بالعقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني باعتبارها ثوابت مذهبية في حاجة إلى من يجتهد في إطارها ويطورها ويكيفها مع ما يستجد في العالم من إيديولوجيات ومذاهب ومعتقدات وشروط تاريخية واقتصادية.

